الفـــن وخطاب التأويل السلبي

أ.سعاد بشير الخراز
كلية التربية – جامعة طرابلس

مقدمة:

الفن بكل صورة هو الواحة النادرة التي نأوي إليها، وننسى في ظلالها كل مشاكل عالمنا الحاضر، ونعيش معها لحظات سعيدة مبهجة بقيمها الفنية والجمالية، التي نرتقي بذوقنا لها في كل مرة نحو الأفضل، ونحس بإنسانيتنا التي يجب أنْ تكون مليئة بالحب والسعادة بعيداً عن العداوة والبغضاء والحروب.

إنَّ فلسفة الفن هي فرع من الفلسفة الأم تهدف إلى البحث في طبيعة الفن الجميل، وطبيعة التذوُّق الفني وأهمية الفن في التجربة البشرية، الأستاذ جيروم ستولنيتز"Jerome Stolnitz " يرى بأنَّ الفن يرتبط بسائر جوانب النشاط الإنساني. وحدد الألفاظ التالية في "الفن" و"الاستطيقي" و"الجمال". حيث يرى أنَّ دراسة الفن تختلف تماماً عن دراسة الجمال الذي يشير إلى جاذبية الأشياء أو قيمتها، بينما يعني "الاستاطيقي" يشير إلى إدراك موضوعات عالية القيم الإبداعية والتطلُّع إليها، إنَّ دور الفن يمكن أنْ يكون ضاراً بقدر ما يكون نافعاً، وهناك طرق لا حصر لها يستطيع بها الفنان أنْ يعمل على هدم السعادة الشخصية والاجتماعية، فهو قد يفسِّر ولا سيما بين الصغار إذ تتجه الدوافع نحو سلوك غير مشروع ومضاد للمجتمع، وهو قد شكك في المثل العليا التقليدية ذات الضرورة الحيوية بالنسبة إلي النظام الاجتماعي، وفي وقت الأزمات السياسية أو العسكرية قد يكون الفن داعية للفتن والتخريب.

مشكلة الدراسة: في غياب اشتغال الخطاب الفلسفي والجمالي والنقدي والمعرفي والمفاهيمي الذي يوضّح أدبيّات الفن للناس بالتوازي مع التظاهرات نفسها ومع ارتباط بنية الذائقة والتواصل الجمالي بما هو فهم مباشر، تصبح المسألة الثقافيّة كلّما تعلّقت بهذا الفن معرّضة لسوء الفهم والإضمار والحكم المسبق على عمليّة الإنتاج نفسها.

تكمن مشكلة البحث في التساؤلات التالية:

1- ما هي أبعاد ومستويات ثقافة الفن التشكيلي في مجتمعنا الليبي؟
2- ما مدى تأثير الفن التشكيلي على التكوين الثقافي في مجتمعنا؟
3- ما هو دور الفن التشكيلي الليبي في الرقي بالتذوق الفني؟

أهمية البحث:

1. توضيح مواقف الديانات السماوية الثلاث من مسألة التحليل والتحريم للصورة وقيمتها التعبيرية والجمالية.
2. توضيح كيفية القراءة البصرية للصورة الفنية، و تأويلها.
3. تنمية الرؤية البصرية لدى المتلقي من خلال الفكر المتفتح والمنطق.
4. توضيح مدى تعقد مسألة التذوق الفني ما بين التأويل الإيجابي و السلبي.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

1. الكشف عن الأبعاد المختلفة لثقافة الصورة البصرية، ودورها في إثراء التذوُّق الفني في المجتمع الليبي.
2. التعرُّف على مواقف التحليل والتحريم للفن التشكيلي من خلال الديانات السماوية.

3. الكشف عن طبيعة التأول للفن و مسألة التذوق الفني.

منهج البحث: استخدمت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي القائم على جمع المعلومات والبيانات من المراجع والمصادر ذات العلاقة لبناء الإطار النظري للبحث.

حدود البحث:

الحدود المكانية: المجتمع العربي.

الحدود الزمانية: الزمن المعاصر.

الحدود الموضوعية: خطاب التأويل السلبي والتَّحريم للفن.

تأتي مسألة الذوق الفني ودرجاته حسبما يحمله المتذوق من ثقافة بصرية من خبرات جمالية وذكاء في الفهم، على اعتبار أنَّ الإدراك الجمالي (Perception) يسير وفق هذا النظام فالإدراك هو: عملية عقلية معرفية، تنظيمية يقدِّم العقل فيها بتفسير ما تستقبله الحواس جمالياً.

تظهر في مجتمعاتنا العربية بشكل عام، وفي مجتمعنا الليبي بشكل خاص إشكالية الفهم الجمالي، والتأويل الفني التشكيلي لها موقفاً مختلفاً لنظام المشاهدة المرتبطة برؤية مختلفة سواء أكانت دينية أو فلسفة أو أيدولوجية سياسية معيَّنة فيما يعرف بالتأويل الفني. في تلك التصورات والرؤية للمفاهيم التي هيمنت على مراحل تاريخ الفهم الجمالي الفلسفي الخاطئ كالممكن والمحتمل، وأحياناً المجرّد للمعنى، برؤية ومنطق الهيام للتأويل الوجداني المتعالي وغير المنطقي، من جانب آخر مما يفقد التطور والرقي بالإبداع الفني على جميع الأصعدة بكل تأكيد.

التأويل والتأويل السلبي: تعرف كلمة التأويل في اللغة: أصل هذه الكلمة مادة (أول) وهذه المادة تدور حول معاني الرجوع، والعاقبة، والمصير، والتفسير يعني خطاب التأويل Hermeneutics الاهتمام بمناهج لتفسير الأدب والفن ويتموقع في الأصل والأساس بتأويل الكتب المقدسة، وتأتي كلمة "تأويل" اشتقاقاً من الكلمة اليونانية harmonics التي تشير إلى المرء الذي لديه القدرة على التفسير، أو جعل الأشياء واضحة، وترتبط أيضاً بالكلمة اليونانية hermus–(هرمز) رسول الآلهة المعروف بقدرته على الابتكار.

التأويل في أوسع معانيه هو "توضيح مرامي العمل الفني ككل، ومقاصده باستخدام وسيلة اللغة، وبهذا المفهوم ينطوي التأويل على "شرح" خصائص العمل وسماته، مثل النوع الأدبي الذي ينتمي إليه، ومقاصده وبنيته وغرضه وتأثيراته. صار لفظ التأويل - بتعدد الاصطلاحات والمصلحة المراد بها حسب التوجه. لقد ظهر التأويل أول ما ظهر في ثقافة العهد الكلاسيكي المتأخر «عندما فوّضت النظرة الواقعية للعالم التي أتى بها التنوير العلمي قوة ومصداقية الأسطورة - وهوالسؤال المناسب للرموز الدينية - حتى تتوقف النصوص القديمة على أنْ تكون مقبولة في حلتها الأولى، يتم عندئذ استدعاء التأويل للتوفيق ما بين النصوص القديمة والمتطلبات الحديثة. ولهذا، قام الأبيقوريون بالتأويل المجازي الرمزي لسمات زيوس وعلاقتها بـ ليتوفما قصده هوميروسفي ملحمته المشهورة لمطابقتها مع نظرتهم القائمة على وجوب الأخلاق عند الآلهة... لهذا يفترض التأويل مسبقاً وجود خلل ما بين المعنى الواضح للنص و بين متطلبات القارئ فيما بعد والحال، أنَّه لسبب من الأسباب يتوقف النص عن أنْ يكون مقبولاً، ومع ذلك فلا يمكن التخلّي عنه، فالتأويل هو عبارة استراتيجية راديكالية من أجل الحفاظ على نص قديم يعتقد بأنَّه ثمين جداً لا يمكن نبذه، وذلك عن طريق إصلاحه، فقد كان أسلوب التأويل القديم كوم أو لكن هم راع لواجبات الاحترام فهو يشيد معنى آخر فوق المعنى الحرفي، أمَّا الأسلوب الحديث في التأويل فإنّه يحفر من أجل أنْ يكشف الإبداعية، وهو أثناء حفره يدمِّر فهو يحفر خلف النص ليعثر على نص تحتي هو النص الحقيقي إنّ أشهر أنظمة

التأويل شهرة وتأثيراً هو نظام اماركس وفرويد اللذان بلغا حقيقة درجة منظومات مسهبة من النظريات المفسرة والتهجمية والتكفيرية من التأويل، وكلا لظواهر البادية للعيان توضع بين قوسين باعتبار - حسب فرويد– تتجلّى عن مضمون ذلك أنّه يجب سبر هذا المضمون الظاهر للإبداع وتنحيته جانباً من أجل العثور على المعنى الحقيقي، أي على المعنى الكامن وراءه.

لم يقتصر خطاب التأويل والتحريم للفنون من الناحية الدينية فقط وإنَّما تعدى إلي ما يعرف بالتحريم السياسي و التحريم الاجتماعي و التحريم الثقافي إلي جانب التحريم الأكاديمي، و كل هذه الخطابات كلها تندرج تحت طائلة الخطاب، العام فالخطاب الديني هو جزء من الخطاب العام في أي مجتمع فيكون منفتحاً و تحررياً و إنسانياً بقدر ما يكون الخطاب الثقافي العام كذلك بازدهار الخطاب العام، إنَّ الفن هو ممارسة للحرية، بل هو ممارسة لأقصى مستويات الحرية و أنَّ مسألة التأويل التحريمي في الفن في أي خطاب من الخطابات السابقة هو أحد تجليات الفزع من الحرية بشكل عام، و هذا الفزع هو ظاهرة تتميز بها مجتمعاتنا عن سائر المجتمعات الأخرى.

لم يكن عمل التماثيل في معظم الأديان القديمة مثلاً عملت لأجل الفن و إنَّما كانت لعبادة أرواح الأسلاف حيث يصبح التمثال تمثيلاً رمزياً لهذه الأرواح، إنَّ تأويل و تحريم الفن بأنواعه من رسم و نحت و موسيقى ظل نقاشاً لاهوتياً تجريدياً و ظلت الحياة الدينية متداخلة مع الفن، فلا يتصور دين بلا فن، فكل الثقافات تغنتي بالتعبيرات الفنية و الأدبية في ممارسة الشعائر، و في تقديم القرابين و في الاحتفالات الدينية على نحو عام .

من الواضح إذن أنّ المسالة ثقافيّة بالأساس قبل أنْ تنحصر في مبادئ الأيدولوجيا وصلفها المتعجرف الذي يسيء إلى الفن والفنّان، وهي تتعلّق بإشكاليّة التلقّي: كيف ننظر إلى الأعمال الفنيّة؟ بأيّ عين نرى؟ وبأيّ نظر نفكّر؟ وبأيّ فكر ننظر؟

يؤكد أبو زيد أنَّ خطاب التحريم بشكل عام، لا يقتصر على الخطاب الديني، على الرغم من أنَّ الخطاب الديني هو الأبرز حضوراً، والأعلى صوتاً بحكم مركزية "الدين" في أفق الحياة العامة في مجتمعاتنا.

موقف الديانات السماوية من الفن: تتداخل قضية التصوير في الديانات الثلاث (اليهودية – الإسلام – المسيحية) على نحو ثابت تاريخياً بأنَّه كان لكل ديانة على حدة معركتها مع تحريم التصوير، إلا أنَّ الصراعات الدينية والسياسية قد تداخلت، وتدخَّلت لتغير من شكل القضية وتحصرها في الإسلام وحده.

إنَّ معركة الأيقونات قد امتدت قرابة العشر قرون. ومن الملفت للنظر أنَّ كافة كُتب تاريخ الفن تبدأ بالتأريخ لها منذ بدايات عصر النهضة، وكأنَّها تتحاشى ذكر تلك الفترة الدرامية بكل ما تضمنته من صراعات في محاور مختلفة. مثلما نلحظ أيضاً استبعاد معظم المراجع للدور الذي قام به العرب والمسلمون سواء في الفن أو في نقل المعارف إلى الغرب، وهو ما تلاحظه أيضاً (مارت برنوستايلور) إذ تقول: "كثيراً ما تغفل المراجع أنْ الحضارة الإسلامية تمثّل حلقة الوصل بين العالم القديم والعالم الغربي. وأنَّ علوم وفلسفة اليونان قد انتقلت إلينا بفضل العلماء العرب. وأنَّ عدداً لا يستهان به من المباني في أوربا لازال يحمل – بلا أدنى شك - تأثير الفن الإسلامي الذي لا يمكن إغفاله".

واليوم نرى ما يجعل الفن في محطة توقُّف وفحص وتأويل سلبي أكثر مما هو إيجابي بكل مقاييس الحضارة. إنَّ مسألة قضية التحريم تحريم التصوير في الإسلام بدأ أولاً في اليهودية ثم انتقل ضمنا إلى المسيحية قبل أنْ يلصق بالإسلام.

يعد تحريم الإسلام للفن التشكيلي من تلك الموضوعات التي تغلغلت في الخلفية الثقافية لوجدان جمهرة من المسلمين، بقدر ما يثير هذا الموضوع عديداً من الجدال والمناقشات بدايةً بفبركات بعض المستشرقين الذين تحاملوا على الإسلام، وانتهاءً بأولئك الذين أسهموا – اجتهاداً (وللمجتهد أجره وإنْ أخطأ) – في زرع هذه البذرة التي أتت ثمارها بما يتعارض مع روح الإسلام الذي يحترم قيم الجمال والخير ويحض عليها، والتزاماً بقيم الإسلام وروحه ونصوصه بعيداً عن التعسُّف، وأول ما يرد للفهم في هذا السبيل، تلك القاعدة الأصولية التي يقوم عليها الإسلام من أنَّ "الأصل في الأمور الإباحة ما لم يرد نص بالتحريم". فإذا نظرنا إلى القرآن الكريم سنجد موضوعين بعينهما يشيران إلى التماثيل، أولهما في سورة "الأنبياء– آية 52 "، عندما هاجم إبراهيم -عليه السلام- تلك التماثيل التي كان قومه يتخذونها أصناماً: **"إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ".** فحسب تفسير الطبري كانت تلك التماثيل أصنامهم التي كانوا يعبدونها ..

أمَّا الموضع الثاني فقد جاء في سورة "سبأ– آية 13 " إذ قام الجن بالعمل بين يدي سليمان -عليه السلام- وأخذوا **"يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شكرا وقليل مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ".**

اختفاء تمثال الغزالة والحسناء و مسألة التأويل السلبي:

اختفت الغزالة والحسناء لم يبق إلا حوض النافورة المزين بفسيفساء زرقاء، حتَّى الجرة التي كانت تمسك بها الحسناء اختفت، السؤال المحيِّر عند الكثيرين هو لماذا؟ ومن قام بهذا العمل الغريب؟ هل هو تأويل سلبي أم سرقة لصوصية؟.

يعود تاريخ تمثال الغزالة والحسناء إلى ثلاثينيات القرن الماضي، حيث انجز التحفة النحات الإيطالي انجلو فانتيني من البرونز، والتمثال عبارة عن حسناء عارية تمسك بجرَّة وتسند ظهرها على غزالة، ونصب التمثال في ميدان عرف باسم ميدان الغزالة، على مقربة من حديقة البلدية وفي مواجهة الكورنيش، لم يعترض أحد على وجود التمثال العاري منذ زمن بعيد. وهذه ليست المرة

الأولى التي يتم الاعتداء فيها على أجمل تماثيل مدينة طرابلس، ففي عام 2012م تفاجأ سكان

المدينة بقماش أزرق يحيط بكامل التمثال ويحجبه عن المارة، واستنتج السكان أنَّ الإسلاميين المتشددين هم وراء ذلك، مثلما حجب الإسلاميون الجزائريون التماثيل في مدينة الأصنام بعد فوزهم بالانتخابات البلدية عام 1992م، حيث اشتروا بأموال البلدية قماشاً أبيض وغطَّوا التماثيل النسائية بالكامل، بينما غطَّوا خصور التماثيل الرجالية حسب فهمهم للشريعة الإسلامية.

من المستبعد أنْ يكون الإسلاميون وراء ذلك، فهم يدمِّرون المعلم التاريخي بسرعة عجيبة، ويتركونه حطاماً قبل أنْ يختفوا، والذي سرق التمثال هذه المرة يعرف قيمته التاريخية والمادية جيداً، وقد يبيعه في السوق السوداء بملايين الدولارات.

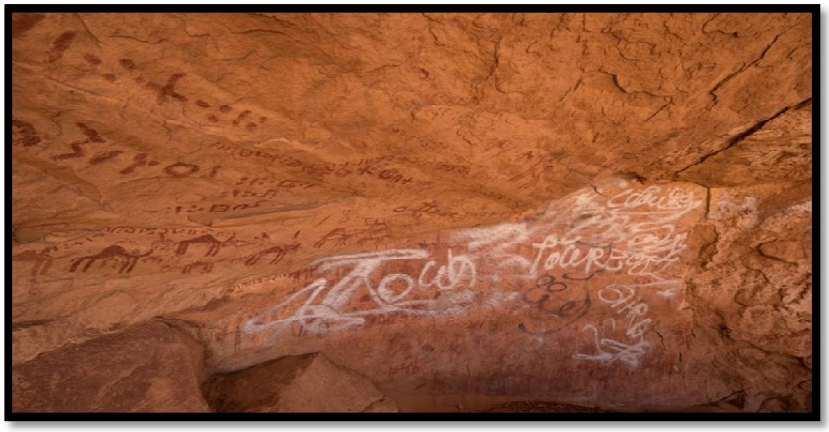

صورة التقطت في الأول من يناير 2016م تبيِّن رسوم «غرافيتي» أعلى نقوش تعود لحقبة ما قبل التاريخ على كهف بأكاكوس (أ ف ب)

ما بين النهب والتشويه تتعرض الحضارة البشرية في ليبيا لخطر كبير، بسبب ممارسات خاطئة و جاهلة في نفس الوقت بأهمية هذا الإرث الكبير المتمثل في الآثار والرسوم التي تعود لآلاف السنين قبل الميلاد. وأحدث حلقة في هذا المسلسل هو تضرُّر النقوش الصخرية التي تعود إلى 21 ألف عام قبل الميلاد في جبل أكاكوس جنوب غرب ليبيا، حيث أقدم بشر لا يفقهون، ولا وطنية لهم ولا حس جمالي أصلاً وقاموا بتشويهها برسوم غرافيتي في السنوات الأخيرة.

قضية الآثار في ليبيا باتت مؤلمة لدرجة أصبح فيها الليبي لا يستغرب مدينة أثرية كبيرة يتم العبث بها، وخير مثال لنقوش صخرية عمرها آلاف السنين في جبال أكاكوس في الجنوب وقد شُوّهت بالطلاء، و ما خفي كان أعظم ..العبث بكل ما هو عتيق وأثري يحمل روح البلاد، لا يقبله الليبيون بعامة، ولكنَّه يأتي خفية ومن طريق القوة والإرهاب من قبل الميليشيات المسلحة والعصابات في ظل غياب الأمن.

نتائج البحث:

1 ـ يفتقر الفن في بلادنا إلي ثقافة نقديّة سيّارة تواكب هواجس المبدعين وترعاها.

2 ـ وقع تحميل العمل الفنيّ ما لا يتحمّل، وكان الاعتداء على الفنّ نفسه قبل أنْ يكون اعتداءً على منظومة القيم والنّاموس الأخلاقيّ واللّغوي العام ومقوّمات الانتماء... لدى هذا الطرف أو ذاك.

3ـ ليسبخ في على أحد، في أواخر القرن العشرين، إلى أي مدى يمكن المتاجرة بأي شيء، حتى بالدين، من أجل تحقيق المكاسب السياسية أو أية أغراض أخرى. - أنْ ينقلوا الأعداء التحريم من العقيدة اليهودية وغرسه في الفكر الإسلامي. فمن المسلّم به أنَّ الفنون هي أسمى أشكال التعبير الإنساني، ووسيلة من أهم وسائل الحوار الآدمي، ودعامة من أهم الدعامات الأساسية التي تقوم